يحبهم ويحبونه

الكاتب : أحمد المحمدي

التاريخ : 22 إبريل 2015 م

المشاهدات : 6726

لا تنال محبّة الله تعالى بالأماني الجوفاء، ولا الدعاوى التي غابت عنها البينات، بل تنال بذوبان العبد وانقياده لمحبوبه، حتى إنه ليترك هواه لهوى محبوبه (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). إنه الحب الحقيقي الذي يصحبه العمل ويحميه الإخلاص وتضبطه النصوص المحكمات، ساعتها يتمنى كل مخلص أن يتدرج به الحال كي ينتقل من المحِب إلى المحَب، قال تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ".

لقد جعل الله الكريم الحب شأناً متبادلاً بين العبد وربه، الأول مستغرب (يحبهم) والثاني متفهم (يحبونه) وهذا أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله بصفاته فوجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها.

يقول ابن القيم: "إذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً، وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه.. هو إنعام هائل عظيم.. وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين..

وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين — وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل — ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد، وهي تقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر * وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذي فوق التراب تراب

هذه المعاني الراقية يعرفها أهل الحق ويتطلعون إليها بشوق، فلم تحجبهم المعرفة عن العمل، ولم يركنهم الحب عن اتباع الأثر، نظروا في القرآن فعلموا صفات من يحبهم الله فالتزموها، وتخلقوا بأخلاقها، فإن علموا أتقنوا وأحسنوا لأنهم علموا من صفات من يحبهم الله أهل الإحسان قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وإن أرادوا إرضاء مولاهم رحلوا إلى الاتباع وتركوا الابتداع، ذلك أن الله ربط المحبة الحقة بالاتباع قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} غايتهم السامية جعلت التقوى مطيتهم لأنهم علموا أن: { اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} وإذا أصيبوا في أنفسهم أو أهلهم أو أموالهم وجدت الصبر على القضاء والرضى بالله قائم في نفوسهم لأنهم سمعوا الله يقول { وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} علموا أن المؤمن الحق هو الذي يتوكل على الله ولا يتواكل عليه، فكانت قلوبهم بالله معلقة وأخذهم بالأسباب ظاهرة وتوكلهم على الله محبة فيه ومجلبة لمحبته قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} لا يعرفون الظلم ولا يحكمون إلا بالعدل والقسط لأنهم سمعوا الله يقول لهم في شخص نبيهم: { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} القسط والعدل لا ينفك عن أهل الإيمان حتى لو كان مع من خالفهم عقيدة وسلوكاً {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } هكذا هي حياتهم سلما مع من سالمهم، لكن حين يفرض عليهم القتال تراهم فرسان النهار كما كانوا رهبان الليل، يقاتلون في سبيل الله تحت راية واحدة وفي صف مهيب لأنهم علموا أن { اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}. وإن زلت أقدامهم أو تعثرت خطاهم تابوا وتطهروا لأنهم سمعوا الله يقول { إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} هكذا هو المؤمن المحَب، يحسن الظن وإن وقع في المعصية فيتوب منه ويئوب ويناجي ربه باكياً وشاكياً وطامعاً فيقول:

لما عصيتكَ لم يكن عقلي معي ***** حتى صحوتُ فكدتُ أقطعُ إصبعي
يا رب هل عذرٌ يبيض وجنتي ***** إلا جميل الظنِ فيك وأدمعي
يا رب ملء العين حجمُ جريرتي ***** ولها صدىً كالرعدِ ملء المسمعِ
عظمت فما شيءٌ يحيط بها سوى ***** حلم الإلـهِ وعفوه المتوقعِ
أنى اتجهت أكاد أسمعُ لعنتي ***** في عمقِ نفسي والجهات الأربعِ
يا ليت أمي لم تلدني كي أرى ***** شؤم الذنوبِ وليتها لم ترضعِ
ربي.. أتقبلني إذا أقلعتُ عن ***** ذنبٍ أصول جذوره لم تقلعِ
ربي.. أترحمني وخبث خطيئتي ***** لتخبثُ النهر النقي المنبعِ
يا رب إن أطمعتني بالعفو لن ***** يبقى من الفجارِ من لم يطمعِ
أنا مستحقٌ منك كل عقوبةٍ ***** حتى وإن بلغت مخيخ الأضلعِ
مهما تكن بلغت علي بشاعةً ***** لم ألفها مما جنيت بأبشعِ
عصياني الجبار حق له — ولو ***** يسمى صغائر — أن يكون مروعي
يا رب معترفٌ بكل صغيرةٍ ***** وكبيرةٍ لكن عفوك مفزعي
يا رب لو آخذتني وجزيتني ***** بالسوء سوءًا طال فيه توجعي
هيهات ما جرمي ولو وسع الدنى ***** من عفوك اللهم قط بأوسعِ

يا من يحب العفَو بين صفاتهِ ***** طال انتظار نزوله في أربعي
أنا لو فشلت بالابتلاء كآدمٍ ***** أنا مِثلُه إذ أُبت بعد تسرعي
أو أبطأ الإخلاص نحوك خطوةً ***** فبحسن ظني فيك خَطوةَ مسرعِ
يا حيُ يا قيومُ قد تعبت يدٌ ***** لسوى جلالك سيدي لم ترفعِ
فإذا عفوت فمحسنٌ عن شاكرٍ ***** وإذا بطشت فقادر بمضيعِ

بوابة الشرق

المصادر: